والأصح أن هذا الدخان عني به ما أصاب المشركين من سني القحط بمكة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . والأصح في ذلك حديث عبد الله بن مسعود في صحيح البخاري عن مسلم وأبي الضحى عن مسروق قال : دخلت على عبد الله بن مسعود فقال : إن قريشا لما غلبوا على النبي صلى الله عليه وسلم واستعصوا عليه قال : اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف فأخذتم سنة أكلوا فيها العظام والميتة من الجهد حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له : استسق لمضر أن يكشف عنهم العذاب فدعا فكشف عنهم وقال الله له : إن كشفنا عنهم العذاب عادوا فعادوا : فانتقم الله منهم يوم بدر فذلك قوله تعالى (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) إلى قوله (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) والبطشة الكبرى يوم بدر . وإن عبد الله فال : مضى خمس : الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام .

في حديث أبي هريرة في صحيح البخاري في أبواب الاستسقاء أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة " من الصبح " يقول : " اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة . اللهم أنج سلمة بن هشام اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف . وهؤلاء الذين دعا لهم بالنجاة كانوا ممن حبسهم المشركون بعد الهجرة وكل هذه الروايات يؤذن بأن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين بالسنين كان بعد الهجرة لئلا يعذب المسلمون بالجوع وأنه كان قبل وقعة بدر وفي بعض روايات القنوت أنه دعا في القنوت على بني لحيان وعصية .

والذي يستخلص من الروايات أن هذا الجوع حل بقريش بعيد الهجرة وذلك هو الجوع الذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال " اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف " وفي رواية " اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف فأتي النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له : استسق لمضر وفي رواية عن مسروق عن ابن مسعود في صحيح البخاري أن الذي أتى النبي هو أبو سفيان . وقال المفسرون : أن أبا سفيان أتاه في ناس من أهل مكة يعني أتوا المدينة لما علموا أن النبي كان دعا عليهم بالقحط فقالوا : إن قومك قد هلكوا فادع الله أن يسقيهم فدعا .

وعلى هذه الرواية يكون قوله تعالى (يوم تأتي السماء بدخان مبين) تمثيلا لهيئة ما يراه الجائعون من شبه الغشاوة على أبصارهم حين ينظرون في الجو بهيئة الدخان النازل من الأفق فالمجاز في التركيب . وأما مفردات التركيب فهي مستعملة في حقائقها لأن من معاني

السماء في كلام العرب قبة الجو وتكون جملة (يغشى الناس) ترشيحا للتمثيلية لأن الذي يغشاهم هو الظلمة التي في أبصارهم من الجوع وليس الدخان هو الذي يغشاهم .

وبعض الروايات ركب على هذه الآية حديث الاستسقاء الذي في الصحيح أن رجلا جاء يوم الجمعة والنبي صلى ا عليه وسلم يخطب فقال : يا رسول ا هلك الزرع والضرع فادع ا أن يسقينا فرفع يديه وقال : اللهم اسقنا ثلاثا وما يرى في السماء قزعة سحاب فتلبدت السماء بالسحاب وأمطروا من الجمعة إلى الجمعة حتى سالت الأدوية وسال وادي قناة شهرا فأتاه آت الجمعة القابلة هو الأول أو غيره فقال : يا رسول ا تقطعت السبل فادع ا أن يمسك المطر عنا فقال اللهم حوالينا ولا علينا فتفرقت السحب حتى صارت المدينة في شبه الإكليل بن السحاب .

والجمع بين الروايتين ظاهر . ويظهر أن هذا القحط وقع بعد يوم بدر فهو قحط آخر غير قحط قريش الذي ذكر في هذه الآية .

ومعنى (يغشى الناس) أنه يحيط بهم ويعمهم كما تحيط الغاشية بالجسد أي لا ينجو منه أحد من أولئك الناس وهم المشركون . فإن كان المراد من الدخان ما أصاب أبصارهم من رؤية مثل الغبرة من الجوع فالغشيان مجاز وإن كان المراد منه غبار الحرب يوم الفتح فالغشيان حقيقة أو مجاز مشهور . ويجوز أن يكون غبارا متصاعدا في الجو من شدة الجفاف .

A E